14 me Année No. 676

Lundi—17—6—1946

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٦٧٦ — القاهرة فى يوم الإثنين ١٧ رجب سنة ١٣٦٥ — ١٧ يونية سنة ١٩٤٦ — السنة الرابعة عشرة

من مخلفات الحرب

هذا الطبلاوى أفندى ! !

تخلّص الإنجليز والأمريكيون من أوزار الحرب التى انقطع منها النفع، فباعوا كل ما تركت من شيء حتى القنابل المحشوة ! وأقصوا كل ما خلّفت من شخص حتى تشرشل الجبار ! ونحن فى مصر لا نزال نعانى من مخلفات هذه الحرب وجرائرها ما يرمض الجوانح ويقُض المضاجع .

لا أريد بمخلفات الحرب هؤلاء الجنود الغرباء الذين يملأون الدور ويزحمون الشوارع ، ولا هذه الضرائب الاستثنائية التى تقصم الظهور وتقوض المصانع، إنما أريد بها أثرياء الحرب الذين يُفحِشون أسعار الخبز واللحم والفاكهة على الفقراء فى العواصم ، ويرفعون أجور القصور و (العشش) و (الكابينات) على الأغنياء فى المصايف ، ويخفضون مستوى الخير والحق والجمال والذوق والفضيلة فى جميع الأماكن ! أكثر هؤلاء طغام رُبّوا فى أحجار الفاقة ، ودرجوا فى أكواخ البؤس ، وأعوزتهم التربية الدينية التى تجمّل الفقر بالزهد ، والثقافة المدنية التى تلطف الشقاء بالأمل ، فشبوا على غرائزهم الأسيلة ، يحتالون عند العجز احتيال الذئاب ، ويفترسون عند القدرة افتراس الأسود ، وهم بين أحوال العجز والقدرة يكابدون آلام الشوق المبرّح المحرق إلى المال فى يد الغنى وفى بيوت التجار ، وإلى اللحم فى جسد المرأة وفى حانوت الجزار، ويحاولون ما استطاعوا أن يطفئوا هذا السُّعار القاتل بالسرقة والقمار والتدليس والاحتيال والغش ، فلم يزدهم هذا الرى إلا ظمأ ، ولا هذه المتعة إلا حسرة !

فلما أوقد المستعمرون نيران الحرب الأخيرة فى بقاع الدنيا فأكلت شباب الأمم ، وأهلكت ثمار الأرض ، ونقصت نتاج الناس ، قُيّدت المعاملات ، وحُدّدت الأرزاق ، فوجد هؤلاء الشرهون الجياع أن الانطلاق من هذه القيود إلى الحرام المشتهى والثراء المرجوّ ، أسهل على نفوسهم من تكلف العفاف وإضاعة الفرصة ، فاحتكروا السلع ، وأغلوا الأسعار ، وطففوا الكيل ، وأخسروا الميزان ، وأقاموا فى ظلمات الطرق وفى كهوف الأرض سبوقاً سوداء يستغلون فيها عُرى الفقير وجوعه ليسلبوه ما تجمع فى يديه من ثمن عرقه ودمعه . وظلت الحرب بضرواتها وشواذها تركم على أجسادهم اللحم والشحم، وتكدس فى خزائنهم الأوراق والأرزاق ، حتى أصبحوا فى المجتمع المصرى طبقة متميزة لها طابعها الخاص، وسمتها الفرد ، وهندامها العجيب ، وحياتها التى أصبحت للتصوير الهازل والصحافة الفكهة مدداً لا ينقطع ومنبعاً لا ينضب!

أسخطنى على هذه الطبقة الجديدة قصة سمعتها عن أحد أعيانها البارزين سأقصها عليك . وليست هذه القصة أول القصص ولا آخرها ، فإن أغنياء الحرب ينفجرون كل يوم من فرط السمن والانتفاخ ، فيكون لهم من الشظايا والضحايا ما لهذه القنابل التى لا تزال نسمع انفجارها فى الطرق أو فى الملاهى !

استزارني يوم الأحد الماضي صديقي الأستاذ (ج) في دارته[1] الجميلة بالدقي، فزرته في وقت الشاي، وكانت الشرفة التي اختارها لجلوسنا تنظر إلى دارة تقابل دارته، إلا أنها أوسع وأرفع وأفخم، ولكن أنماط الناس الذين يدخلونها أو يخرجون منها أو يحفون بها لا تأتلف مع جمالها ولا ترتفع إلى مستواها. دع هذا الصياح الذي يتفجر فيها، والرياط الذي ينبعث منها، فربما كان أصحاب الدارة غائبين والخدم ينفسون عن حريتهم المكظومة بهذا الهرج. فسألت صديقي من باب الكلام الذي يُقصد به تحريك اللسان قطعا للصمت أو فتحا للحديث:

لمن هذه الدارة الفخمة؟

فابتسم صديقي وقال وهو يشير إلى امرأة تجلس وحدها على مقعد من مقاعد حديقته:

لهذه المرأة!

ونظرت إلى المرأة التي أشار إليها فوجدت جسما كالخيال دقيق الشبح معروق العظام تستره ملاءة لف من الطراز الذي كانت تلبسه الخادمات قبل أن يصبحن (ارتستات) حرب! فقلت لصديقي وأنا أبتسم كما يبتسم: ماذا تعني؟ فقال: إنما عنيت ما قلت، وهو أن تلك الدارة لهذه المرأة، وهي مع ذلك لا تجد اللباس ولا تملك القوت، ولا يمر أسبوع دون أن تزورني مرة أو مرتين لألتمس لها من جانب هذا الثراء الضخم فضلة من الرزق تمسك الرمق وتديم العفة، ولكن!!

فقلت له والتعجب يترقرق في عيني ووجهي: لم أفهم ما تريد فماذا تعني؟

فقال بلهجة الجد: أعني أن هذه المرأة زوجة صاحب الدارة، وهو فلان الغني الذي يسميه الناس (الطبلاوي افندي) لأن بطنه المنتفخ المستدير يجعله أشبه بضارب الطبل العظيم حين يحمله على صدره. كان هذا الرجل فقيرا غير شريف، ووضيعا غير متواضع، تزوج وهو في تلك الحال من هذه المسكينة فولدت له خمس بنات وثلاثة بنين أكبرهم كما تقول لا يبلغ الرابعة عشرة، وكانت تعيش معه هي وأولادها على الكفاف، تساعده في حدود ما تستطيع بالعمل والتدبير والتقتير والقناعة، وتحتمل سَرَفه وزَرْقه بالصبر والإغضاء والنصيحة، حتى أدركته (نعمة) الحرب في سنتها الثالثة، فوصلت حباله بحبال المتعهدين لجيوش الحلفاء بالمواد الغذائية فشاركهم في الجمع والتوريد، وانفرد عنهم بالصانعة والمهاواة، حتى استطاع بجرأته بعد قليل أن يدخل على رؤساء العمل الانجليز من الباب الخلفي، فعاملهم بالغش، وشاركهم في الربح، واستعان بهم على إخراج المحظور من السكر والرز، وإدخال الممنوع من الحشيش والأفيون؛ فتساقطت على رأسه وقفاه رزم البنك نوت تساقط البَرَد الغليظ، حتى اجتمع له في نهاية الحرب ربع مليون جنيه!

ومنذ رحلت جيوش الحلفاء خلع الطبلاوي رداء العمل، وحشر نفسه في صفوف الترفين والعلية، فلفّف جسمه بالحرير، وختّم أصابعه بالماس، وعدّد الألوان الفاقعة في بذلته وحذائه؛ ثم خلى جسمه المنهوم يضخم ويسترخي وينبعج جانباه، وترك شاربه الخشن يغلظ وينتفش ويطول سِبالاه؛ ثم اقتنى الضياع والعقار، واشترى الرُّلز رايز والباكار. وكان يطلب الأغلى من كل صنف، والأعلى من كل شيء. ولا أشك في أنه هو الذي تحدث الظرفاء عنه بأنه استشار الطبيب فأشار عليه بفيتامين بيه (B)، فقال له: ولم لا تشير بفيتامين باشا؟ وأنه طلب إلى رسام أن يرسمه فسأله: أتريد الصورة بالزيت؟ فقال له: كلا، بل أريدها بالسمن. وأن طبيب الأسنان أراد أن يصنع لأحد أضراسه المنخورة غلافاً من الذهب، فطلب إليه أن يصنعه من الماس! ثم سكن هذه الدارة وألقى زمامه في يد الغاوين من رواد اللهو وسماسرة الفجور، فجلوا له من كل غرفة ماخورًا، ومن كل ردهة مرقصا، ومن كل بهو حانة.

وأعجب ما في الأمر كله أن صورة بيته القديم كصورة ماضيه العظيم قد انمحت من ذاكرته، فلم يعد يذكر عنوان بيته ولا سكانه ولا جيرانه، كأنه لم يستقبل الحياة ولم يبصر الدنيا إلا سنة ١٩٤٥! وها هي ذي امرأته على الحال التي ترى، تأتي كلما دفعتها الحاجة لتتوسل بي وبغيري إلى هذا الوغد ليرمي إليها من وراء السُّور من فضلات الغواني وفُتات الموائد ما يمسك الحياة عليها وعلى أولاده، وإن لم ينقص فلن يزيد.

فهل كنت تظن قبل هذا الحديث أن في خلق الله أمثال هذا الرجل؟ فقلت له: والله يا صديقي لو كان المحدّث غيرك لاتهمته بالتزويق والتزوير، ولما صدقت أن يكون في بني الإنسان هذا الخنزير!

أحمد حسن الزيات

(١) الدارة: خير ما وضع من الألفاظ للفلا (villa).